المحاضرة العاشرة

الدراسات اللسانية العربية الحديثة – 2- تابع

1- الفكر العربي والكتابات اللسانية الحديثة:

بعد محاولة تحديد زمن ظهور الكتابات اللسانية العربية الحديثة، نحاول معرفة كيفية تعامل الأوساط العربية معها، والمكانة التي حظيت بها.

لا شك أن أصعب الأمور بداياتها، وكذلك كانت بداية الكتابات اللسانية العربية الحديثة " لقد كان اللسانيون العرب يتوجسون مما قد يجابهون به من ردود أفعال مناهضة لنشاطهم، سواء من المشتغلين باللغة أو من الجهات الجامعية والمؤسسات العلمية التي ترعى النشاط اللغوي. فقد استشعروا صعوبة تقديم المناهج اللسانية الحديثة للقارئ العربي، ولم تكن الصعوبة في عملية عرض هذه المناهج بقدر ما ارتبطت بإقناع الآخر بجدوى هذه العملية" **(م ن/ 16)**

فتخوف اللسانيين العرب المحدثين كان من كيفية تقبل الأوساط العربية لهذه الأفكار الجديدة التي أتوا بها من العالم الغربي إلى العالم العربي الذي كان محصورا في قضايا النحو العربي، وفي القضايا التراثية الأخرى "والحقيقة أن لهذا الشعور ما يسوغه فيوضعية الدراسات اللغوية في تلك المرحلة، إذ اتسمت بالجمود لولا محاولات متفرقة كان هدفها إحياء النحو، وإعادة صياغة قواعده. فقد ساد الاعتقاد، ولعله سائد لدى الكثيرين اليوم أيضأن بأن علوم العربية بلغت النضج والاكتمال، وهو اعتقاد جعل العربي ينظر بقداسة للإرث اللغوي الذي خلفه القدماء" **(م ن/ 16)**.

فالوضعية التي كان يعيشها الوسط العربي كانت هي سبب تخوف اللسانيين العرب المحدثين يتخوفون من تقديم هذا المشروع الجديد على هذا الوسط ويصرح بعض اللسانيين العرب في كتاباتهم بذلك فيقول محمود السعران أن أغلب المشتغلين باللغة في البلاد العربية كان "يرفض النظر في هذا العلم الجديد، أو لا يحاول تفهمه، أم يعجب أن ما في يده من علم قد يحل محله علم آخر حادث وافد من (البلاد الغربية) وخيرهم ظنا بهذه الدراسة الجديدة وبالقلة القائمة بها من أبنا العربية يعد علم اللغة أو بعض فروعه، كعلم الأصوات اللغوية (ترفا) علميا لم يؤن الأوان بعد الانغماس فيه أو التطلع إليه". **(محمود السعران، 1997/ 27)**

فهذه الأسباب جعلت الدارسين العرب يتخوفون مما سيقدمونه من دراسات وأفكار جديدة لم تعهدها هذه الأوساط، وكانوا يدركون في بعض الحالات أن محاولاتهم ستواجه بالرفض يقول عبد الرحمن أيوب في كتابه دراسات نقدية في النحو العربي "أما كيف يتلقى الناس هذا الكتاب فإني أعلم مقدما أن منهم من سيعتبره كفرانا بثقافتنا التقليدية، وتجريحا لسلفنا اللغوي الصالح" **(عبد الرحمن أيوب، مقدمة المؤلف)**

ولعل السبب في هذه النظرة إلى اللسانيات الغربية الحديثة، الظن السائد بأن اللسانيات الغربية تستمد شرعيتها من دراسة اللهجات على أساس أنها علم يقوم على دراسة الكلام البشري من دون تمييز أو انتقاء. مما جعل المشتغلين باللغة وغيرهم ينظرون إلى هذا العلم بشيء من الريبة والشك خاصة وأن الدرس اللغوي الحديث ارتبط عندنا بالجهد الاستشراقي عموما، حيث أن بعض اللغويين العرب وظفه توظيفا خرج به عن المقصد العلمي الخالص وابتعد عن الموضوعية كما فعل أصحاب الدعوة إلى العامية **(عبد السلام المسدّي، 1978/ 15)**

فهذا أيضا سبب من بين الأسباب التي جعلت الأوساط العربية تتخوف من الدراسات اللسانية الحديثة، وقد أشار عبد الرحمن أيوب إلى ذلك حين تصدى لدراسة اللهجات العربية في ضوء اللسانيات، فقال أن هذه الدراسة لا تزال "في جامعات العالم العربي ومعاهده أمرا جديدا وغريبا" (**عبد الرحمن أيوب، 1986/ 1**)

ويرى بأن السبب في ذلك هو وجود من يرى في دراسة اللهجات "دعوة للنهوض بها حتى تصل كلٌّ منها في موطنها محل العربية المشتركة" (**م ن/ 1**) ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد إنما هناك عوامل أخرى تتعلق بما كان سائدا أيضا في الأوساط العربية كنظرتهم إلى اللهجات ودورها في الابتعاد عن الفصاحة. يقول عبد الرحمن أيوب "الأمر يتعلق بالنظرة التقليدية للهجات، واعتبارها نوعا من الفساد الذي أصاب اللغة (الفصحى، والذي يتحتم على من يهتم بأمر لغته وقوميته أن يجد له علاجا" (**م ن/ 01**)

وقد تبنت الجامعات والمعاهد في هذه المرحلة تلك النظرة التقليدية إلى المناهج اللسانية الحديثة، ويظهر ذلك جليا في كتابات أعلام الدراسات اللسانية العربية. لذلك فاننا نجد تمام حسان حين يذكر الصعوبات التي اعترضته أثناء تدريسه لهذه المناهج بكلية دار العلوم، يقول "... وكنت أتولى تدريس علم الأصوات اللغوية لطلبة السنة الثانية بكلية دار العلوم بالقاهرة، فيما بين عامي 1953 - 1959 كان الاتجاه العام بين أساتذة الكلية في ذلك الحين هو إلى التشكيك في - قيمة الدراسات اللغوية الحديثة (...) وكنت أبّين في تدريس هذا الموضوع ما تتطلبه الفصحى من إعادة النظر في منهجها وطريقة تناولها، وفي سنة 1959 تحولت عن قسم الدراسات اللغوية بكلية دار العلوم (و هو القسم الذي يعنى أساسا بالمناهج الحديثة في دراسة اللغة) إلى قسم النحو والصرف والعروض، وهو المقابل التقليدي للقسم السابق الذكر، وكان من بين الدهاقين الذين يعيبون هذا الجديد، كبار رجال هذا القسم، ولقد أشفقت أول الأمر على ما يدور في رأسي من أفكار المنهج الوصفي أن تهب عليها رياح اللواقح والسلطة الرسمية ومطالب تنشئة الطلاب في النحو التقليدي" (**تمام حسان،7-8)**

ومن هنا تتضح الصعوبات التيواجهت الدراسات اللغوية العربية الحديثة في بادئ الأمر بسبب كثرة الذين يعيبون هذا الجديد ويرفضونه، متمسكين بالمقابل التقليدي.

2- - الإشكال المعرفي:

إن تحديد لحظة النشأة، فيما تعلق بالدرس اللساني العربي الحديث يرتبط برصد ظروفها وملابساتها، من حيث ارتباطها ضرورة بالمناخ العام الذي حكم الفكر العربي الحديث ابتداء مما عرف بعصر النهضة العربية أوائل القرن التاسع عشر الذي كان وليد ظروف التدخل الاستعماري في البلاد العربية.

وقد شكل القرن التاسع عشر منعطفا حاسما في تكوين الفكر العربي الحديث، إذ وجد هذا الأخير نفسه أمام ضرورة القيام بمشاريع إصلاحية كبرى على المستويات جميعا وضرورة إعادة النظر في أوضاع هذا الفكر لمواكبة التطور الحاصل في الغرب الذي صدم العرب للمرة الأولى مع الحادث الاستعماري.

لقد وضع هذا الوعي العرب أمام نموذجين حضاريين وجعل اللسانيات العربية الحديثة تعيش حالة من المد والجزر بين طرفين: الأول عائد إلى الماضي باعتباره هوية الأمة الواجب الحفاظ عليها بتكريسها كرؤية صالحة لكل زمان ومكان، والتي يعد تجاوزها شكلا من أشكال الخيانة معتمدا في طرحه على أساليب التقويل والاستنطاق محاولا ربط كل جديد يظهر بالتراث.

أما الثاني فيعمل على تمثل الحاضر باعتباره عملا وضع لزمن غير زمننا ويعالج قضايا لم يعد لها وجود فيواقعنا، وهو يمارس عبر طرحه كل أشكال الاستيراد والتبني للمناهج والرؤى الغربية على النتاج الفكري واللغوي بحجج مختلفة كالعلمية والعالمية والحداثة وغيرها. "وبذلك كان الفكر العربي الحديث يتشكل بقطبين متنافرين: سلفي يحاول أن يعيد إنتاج الموروث الحضاري العربي الإسلامي بصيغته القديمة نفسها، أو بصيغة معدلة تعديلا جزئيا، وحداثي يحاول أن يتبنى المسار الحضاري الغربي بكل تفصيلاته، ويعلن القطيعة مع القطب الأول" **(فاطمة الهاشمي بكوش/ م س 14)**

ولما كانت الدراسة اللغوية جزءا من نشاط هذا الفكر يتبع انقساماته وأحواله، فقد خضعت بالفعل إلى ما خضع له هذا الفكر من صراع بين أصول نظرية مختلفة استمدت منها وجوده. ولما كانت اللسانيات العربية الحديثة محاولة لنقل النظرية اللسانية الغربية الحديثة– بحسب رأي الباحثين – فقد واجهت الصراع نفسه من مرجعيات مختلفة، منها ما يتبع البحث الفيلولوجي ومنها ما يرتد إلى التصورات القديمة التي شكلتها النظرية اللغوية العربية القديمة.

وفي فوضى هذه التقاطعات حاول البحث اللساني العربي أن يبني لنفسه هيكلا مستقلا يصف من خلاله اللغة العربية معتمدا على كل هذه الأصول النظرية، مع مراعاة ما يتطلبه الواقع اللغوي اليوم من نظر خاص.

لقد اتجهت اللسانيات العربية الحديثة إلى ما يمكن تسميته لسانيات توفيقية تتبنى أنموذجا وصفيا يمزج المقولات النظرية الغربية الحديثة بمقولات نظرية النمو العربي، وكان هذا الموقف الأساسي في اللسانيات العربية، على الرغم من النقد الذي وجهه اللسانيون العرب إلى نظرية النحو العربي، إذ لم يستطيعوا أن ينتجوا درسا لسانيا بعيدا عن الأصول التراثية بله عن القطيعة التامة مع التراث النحوي القديم، إذ كان هذا يعني تغريبا ثقافيا يهدد الهوية الثقافية العربية الإسلامية **(م س 15)**

يقول تمام حسان "وتشبعت المسالك أمام الشعب بعد أن تثاءب وتمطى ونفض عن نفسه غبار الموت، فوجد أمامه طريقا في الماضي يقوده إلى التراث العربي الخصب، ورأى أنه لو بعث هذا التراث وأحياه لكان دافعا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التأريخ العربي نفسه، ووجد أمامه طريقا في المستقبل معالمه ما في أيدي الأمم من علوم ومعارف... ثم رأى أنه لو سلك الطريق الأول فحسب لا تقطع به التاريخ عن الحياة، ولو سلك الثاني فحسب لا تقطعت به الحياة عن التاريخ ففضل أن يأخذ بنصيب من التراث العربي يوحي إليه بالاعتزاز ونصيب من الثقافة المعاصرة يمنحه العزة " **(تمام حسان، 1986/ تقديم المؤلف)** وتمام حسان من خلال هذا القول يؤكد بأن الدراسات اللسانية العربية الحديثة تتوجه اتجاهين أساسيين هما: التوجه إلى التراث العربي، أو التوجه صوب الدراسات الغربية، ويرى كذلك أن أفضل طريق هو الجمع بين الاثنين.

3- دلالات التأليف اللساني العربي الحديث

وجدت اللسانيات العربية نفسها أمام ضرورة إقامة وضع جديد في البحث اللغوي. وقيام مثل هذا الوضع كان مرتبطا بضرورة نقل اللسانيات الغربية من سياقها المعرفي إلى سياق ثقافة أخرى هي الثقافة العربية، وبالتالي كان على اللسانيين العرب أن يعيدوا النظر في الموروث اللغوي، وقد كان ذلك أدق مهمة واجهت مشروعهم وكانت أساسية لتسويغ مشروعية هذا الخطاب اللساني الجديد.

ومن خلال هذا القول يتبين لنا أن المقصود بالخطاب اللساني العربي الحديث الخطاب الذي تعكسه الكتابات اللغوية التي تستند نظريا ومنهجيا للمبادئ التي قدمتها النظريات اللسانية في مختلف اتجاهاتها الأوروبية والأمريكية في إطار ما أصبح يعرف باللسانيات العامة.

فيمكن أن نقول أن صور النشاط اللساني العربي تتمثل في اتجاهات حركة التأليف التي تنوعت بين مصنفات عنيت بدراسة مستويات اللغة العربية في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة، وأخرى حاولت تقديم اللسانيات الغربية للقارئ العربي، ثم تلك التي كرست لنقد النحو العربي من وجهة النظر الحديثة، وبين حركة الترجمة التي لم تكن حركة واسعة (**فاطمة الهاشمي بكوش، م س/ 22**)

لكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو انه ليس من السهل تصنيف الكتابات اللسانية العربية الحديثة بسبب تداخل المواقف والآراء وحتى بالنسبة إلى اللساني الواحد ف "قد يأخذ بأكثر من موقف دفعة واحدة، أو ينتقل من موقف إلى آخر خلال فترات حياته العلمية. ونظرا للتطورات التي عرفتها النظريات اللسانية فقد عرف الخطاب اللساني بدوره اتجاهات متعددة الأمر الذي يجعل كل محاولة تستهدف ترتيب الكتابة اللسانية وتصنيفها عملية محفوفة بكثير من الصعوبات" (**مصطفى غلفان/ 86-87**)

ومع ذلك فقد خضعت الدراسات اللسانية العربية الحديثة إلى الكثير من التصنيفات (**صورية جغبوب، م س/ 21**) والتي يمكن القول بأنها مشابهة إلى حد بعيد. لكن قد يكون أشملها تصنيف مصطفى غلفان لأنه وضح وحدد معايير تصنيف هذه الكتابات اللسانية. ولا تختلف التصنيفات الأخرى في مضمونها عن هذا التصنيف كثيرا، حيث تكاد تجمع على أن الكتابات اللسانية العربية الحديثة إما كتابات لسانية تمهيدية تعرف باللسانيات واتجاهاتها وأعلامها، أو لسانيات تراثية تتخذ التراث اللغوي العربي موضوعا لها، أو أنها لسانيات عربية تتخذ ظواهر من اللغة وتدرسها

النتيجة: حكمت الدرس اللساني العربي الحديث مقولات ارتبطت بسعي اللسانيات العربية إلى تسويغ مشروعية وجودها في الثقافة العربية وذلك من خلال:

-1 القول بعدم كفاية النموذج التقليدي.

-2 القول بضرورة تبني المنهج الوصفي في الدراسة اللسانية.

-3 القول بحاجة اللغة إلى إعادة الوصف من خلال النظرية اللسانية الغربية الحديثة.

وقد نتجت عن هذه المقولات مواقف فكرية متباينة في تصورها لطبيعة العمل اللساني العربي

وهدفه، وهي:

-1 موقف الثورة على كل المواريث.

-2 موقف الجمود عند التراث.

-3 موقف حاول التوفيق، وتوصيل الماضي بالحاضر.